

صلوات فكر في محاريب الطبيعة للأستاذ عبد المنعم خلاف

يا أرض الرستمية !

عليك السلام من عيني اللتين تدوران فيك دورات زائفة
زئبقية مروعة وتلقطان الصور من حياتك ومواتك وآفاقك
وذراتك ...

ومن قلبي الذي قدست أسرارته وقدس أسرارك وخلدته
وخلدك ...

ومن فكري الذي صقلته وأرهفته وجعلته يتصل بأصول
الحياة ويرتبط بوثيق الأسباب ...

لقد توسعت نفسي من رحبك وتعددت بتعدد مرئيك ،
ورقرق خواطري نهرك الوديع اللعوب ، في ابتسام الفجر وبكاء
الغروب ، وأحسست سلامة النبات وهدهؤه وصبره وصمته ونغوه
وإشراقه يدب في جسدي ...

لقد اختلطت فيك الرؤى بالأحلام ، والصحو بالذهول والنام ،
فتوسع عالمي ورأيت في دنياي وفي نفسي مخايل وعجائب ومدخرات
ومكنونات ...

لقد خللت في خيالي صور الأعواد الجافة والخضراء والربى
والزهاد والزهر والمطر حتى لأوشك أن أعد كل أولئك واحداً
واحداً من ترديد النظر وانطباع الصور ...

وهل أنسى كئوس النور والظلام التي أدرتها على عيني
مخضبات بأصباغ التفقيين ، شمشعات بالندى والطل ، مطيبات
بنفح الزهر وأنفاس السحر ؟

لقد شربت عيناك فيك من النور والظلام فسكرت سكرأ
أبدياً أفرغ في كل خلية من خلاياي نشوة وفتونا
لقد دخلتك كارهاً فراق بندا ... فكنت كالذين يقادون
إلى الجنة بالسلاسل !

ثم انطلقت في رحابك انطلاقاً وياحك وأطيارك ، أحمل قلبي

يحد من اللص غفلة ليتمكن منه ، فإذا بادعائه النوم قد صار نوماً ،
فينط في النوم حتى يأخذ اللص كل ما يريد من البيت ويتركه ،
وساحبه قد ادعى النوم حتى نام .

وهذا أيضاً شبيه بمن يريد أن يحتال على إنسان فيقدم له
قطعة من الذهب ويدعي أنه وجد كنزاً كي يخدع ذلك الإنسان ،
ويسلبه ماله ، فيدعي ذلك الإنسان السذاجة وأنه انخدع ، ويأخذ
القطعة كي يسأل عن قيمتها ثم لا يعود .

وهو أيضاً شبيه بصاحب الوزق المقامر على الورق المقلوب من ورق
اللعب ، يدعي الخسارة ويعطى اللاعب جنبا كي يستدرجه ويسلبه
ماله فيدعي اللاعب أنه ساذج ، ويظهر رغبته في استئناف اللعب ،
والقمار ، ويستأذن في قضاء حاجة ضرورية من حاجات الجسم ثم
يذهب بالجنيه ولا يعود .

وهذه الأعمال لها نظائر وأشباه بالقياس في أعمال الناس
الجليلة الكبيرة الشروعة المحترمة . فالخذر عند ادعاء الانخداع
ضرورة . أما أن يفتر المرء بأنه لا يستطيع أحد أن يخدعه فإذا
كان يراد به التملق لمن يتظاهر مع ذلك بالانخداع لهم فهو دهاء ،
ووسيلة كسب بالكر . أما إذا أريد به مضايقة الناس وتحريك
عوامل خوفهم وبغضهم فهو سذاجة أو بلاهة ، ولا شيء يدعو
إلى الفشل في الحياة كاعتقاد الناس في إنسان أنه لا يخدع ،
ولا يدعي الانخداع ؛ وهذا الاعتقاد يؤدي إلى بغض الناس من
يعتقدونه فيه حتى وإن كان اعتقادهم باطلاً لا أساس له ، وهذا
التظاهر بالانخداع هو ما جملة أبو تمام من أسباب السيادة وسماه
بالتناي في قوله :

ليس النبيُّ بِسَيِّدٍ في قومه

لكنَّ سَيِّدَ قومه التناي

وتبعه البحرى فقال :

وقد يتناي المرء في عظم ماله

ومن تحت بُرْدَيْهِ المُغِيرَةُ أو عمرو

عبد الرحمن شكرى

النهار وأنهام الليل ، في جرات الظهيرة وخفات المسمة ،
ولو طارت في الريح ... ولو وقع على سقف الدنيا !
ولا نادين على اسمه : الصلاة جامعة أيها الأحياء ...
إلى الإحساس بالحياة ورب الحياة ... قوى مصطفة في أمالكك
المحدودة الموزونة ...

فيسجد كل كائن في مكانه ويسجد قلبي معه ...
وسأعود إلى أحضان الطبيعة أغنى في أذننها كطفل ينفي
في أذن أمه ويدفعه قلبه العاشق الراهب إلى التمسح فيها
والاحتفاء بها ...
وسأحمل قلبي إلى كل مكان فيها كما تحمل الطير قلوبها
إلى كل شجرة ...

وسأسجل خواطري عنها في كل ساعة تتعرض لي فيها بفتنة
من فتونها ، وأرصدها وهي يقظة أو نائمة ، خفيرة محتشمة
أو عاهرة متبرجة ، ضاحكة أو باكية ، حيلة مكدودة تمانى آلام
الحل وأطلق والوضع أو فارغة خفيفة ...

لقد احتكرتني لنفسها ولم تدع في قلبي مكاناً لحب غيرها
إلا أن يكون مراداً إليها وجمالها من جمالها

فيا ابن الإنسان ! هلم مني إليها . لقد كنت تتخذ الحجارة
وكثيراً من الأشياء التافهة آلهة من شدة شعورك بها فتسجد لها .
أفلا تصلي معها الآن لربها الذي اهتديت إليه ؟

هي لا تزال شاعرة بربها كما كانت وكما تكون . وذهب
شعرك أنت بها وربها . وصرت تسجد لنفسك . فمن يمدك
مك ؟ لا شيء ... إن الحجارة تأتي أن تمدك كما عبدتها أنت
في ضلالك القديم !

١ - قيل السريع

الطبيعة تلد من كل جسمها ... جاء ابتداء دورة زمنية ...
الأجنة تتحرك للانفصال من العالم الغائب ... الأنواع من نباتها
وحيواتها تزدحم لتسير في الموكب ... يستعرضها صاحب الوقت
القائم على الزمان .

أنا لا أشارك في الموكب لأنني عقيم لم أقدم قرباناً ما للحياة
بالقاء بعض الأحطاب إلى شعلتها . ولذلك جعلتني من الواقفين
على هامش طريقها يهتفون لها بالقصائد اللفظية .

إلى كل مكان كما تحمل الطير قلوبها على الأغصان ، أنف على كل
أشياء حياة ونبض لأخذ لقلبي منه قوة وطاقة يستعيض بهما عما
يبدله ويسرف في بذله

فاني حين رأيت عيني عاجزة أن ترى « سر الوجود » جعلت
أرعى بنفسى في مواضع يده . وكأنه عند ما بدت منى لهفتي الدائمة
إليه أوسع لي من عطفه فأخذني إلى قطعة فاتنة من الطبيعة
المكتشفة التي لا حجاب بينها وبين حواشي الداخلية والخارجية ،
لأرى يده دائماً من وراء ستر شفاف فقادني إلى الرستمية

وقد عشت مخنق الحواس في المدن ، لا أرى إلا حجارة
مبته موضوعة بهندسة الإنسان ، ولا أرى من الطبيعة إلا قطعة
من السماء في سميت شارع أو من نافذة دار . وهيئات كان
تتقلى إليها ...

وكنت لا أذكر الطبيعة إلا برؤية شجرات في الشوارع
تكاد تنكر وجودها في هذه الأماكن الصناعية ، وتكاد عيني
تحسبها صنعة إنسانية كالآلات في وجهات الحوانيت . وكنت
أزور الطبيعة المكتشفة التي في خارج أرباض المدن كما يزور
السائح الأمريكي متحفاً للآثار في الشرق ...

وحقاً استحالَت الطبيعة البكر المكتشفة كتاحف للآثار
التي كان يستعملها أجدادنا وصارت لا تقاطعنا عنها غريبة علينا .
وصرنا لا نرى مشاهدنا إلا من خلال عدسة التصوير أو من ريشة
فنان أو ألقاظ قصيدة ...

ثم قصر الناس صلاتهم على الأنصاب والهيكل والأماكن
المظلمة الضيقة التي لا يرون فيها إلا أجسادهم ، وتركوا المحارب
التي بناها رب الحياة بيده هو لعبادته بالفكر والقلب ...

تركوا المعبد المفروش بالأعشاب والزمال ، المسقوف بالمصاييح
الزهراء ، القائم على جدران من سامقات الجبال وأعمدة
من بواشق النخيل وقارعات السرو ، المنسول بشعاع الشمس
والقمر ؟ وكأنهم بنوا معابدهم لتحتمي أجسادهم من فيضه وفيض
طبيعته ، وتركوا قلوبهم تحتقن فيها بالبخور والطور والأصوات
القردية التقليدية

أما أنا ... فزوب الحياة لأعبدنه في الطبيعة تحت الموطائل
والصواعق ، في حرارة المواجه وبرودة الأسحار ، في وضوح

جديدة ثم امنع فكرك عن الدوران في الأرقام والحروف والمفونات القديمة ... وألق كل قديم من قبلك وتجدد ... وافتح فؤادك الجائع الذي لا يمتلئ ، فإن كل هذا الجمال والحياة له ...

أنظر إلى الربى والرهاد والتلاع والسهول والأغوار ، تجد الرينة والأعلام في كل مكان ... ما تركت السحب مكاناً بدون أن تفرشه بالسندس والأخوان ، وما تركت النسيم مكاناً بدون أن تمر عليه منبهة ما فيه إلى وجوب الطاعة لحركة الحياة بالتمايل والحفيف والتصفيق ... حتى شجرات الموسج والشوك أوردت وأزهرت !

ضع وجهك وجسمك بين الأعشاب والأزهار ... واستقبل الأنداء والأشعة ، واهدب بأجفانك كالترجس ... ودر بعينيك مع الشمس « كمبأداها » ، ودع النحل والفراش تقبل فاك وعينيك ... وارسل نفسك ندياً خائفاً بسيطاً بدون تعقيد ليحمله النسيم مع العطور ... ثم لا تفكر ! حتى لا تحترق أوراق الورد ، وتختنق أنفاس النسيم .

وانظر إلى المطفلات من البهائم ، وإلى أطفالها بحنان ، وهي ترمي سميده تحضن نبتة الربيع ثم تخور وتجتحر حالة ...

فإذا جاء الليل فاخرج إلى الحدائق المعلقة في السماء ، وانظر فيها حالاً ساهماً تحت ضوء القمر الباهت ، ودر بعينيك في نفسك وفي أغوار الأزل والأبد . فملك أن ترى هناك الربيع الدائم ...

نعم . فليس قلبك قائماً بهذه اللحظات الغانية من ربيع الأرض ... إن قلبك ليس ورقة من ورقات الأشجار تخرج ناظرة ساهمة بلهاء ، ثم تفارق الكون مكرهة إلى غير رجعة . بل هو عقدة ثمرة خالدة في الربيع الخالد الذي لا يحرقه صيف ولا يحوله خريف إلى هشيم تذروه الرياح وتلوى به الصبا والدبور إلى الدثور .

ولئن عر عليك أن تفني بين يديك وأمام عينيك أرواح الأزهار الأرضية ، وتساقط أجسادها جثثاً بالية ناصلة الألوان ملوثة العطر ... فانظر إلى حدائق السماء ذات الزهور الخالدة التي تصل إليك ألوانها وعطورها من بعد . وتمزج بهذا البقاء عن ذاك الفناء . وكن على يقين بأن قلبك مخلوق دائم لهذا الربيع الدائم الذي تراه فوق في الحدائق المعلقة ...

عبد النعم ضيوف

« بندا - الرستمية »

لعلها غاضبة عليّ ، لأنني عاق لها بالعمل ، وإن كنت باراً بها في الشمر . أما أناؤها البررة فقصاصهم : شجرة أو ثمرة أو ورقة أو زهرة أو فرخ بيضة ، أو كتلة لحم تصرخ في أذنها وتتكلم ! يقدمون ذلك لها في كل عرس من أغراسها كبرهان ولاء وطاعة وشمر حقيق ...

قد يخاف الفيلسوف من موت الثمرات أو مرضها أو فسادها ... ولكن الطبيعة تود الثمرات ولو كانت معطوبة . تود حياة الأمل والألم لا حياة العقل الجامد . تود أن تسمع عويل الشكل وصوت النسي ، كما تود أن تسمع صوت البشير وضجيج الميلاد .

تريد دائماً أمماً تصرخ في أذنها إما من الطلق والوضع ، وإما من النقد والشكل . تريد جينياً محملاً في ظلمات البطن ، ورضيماً ملفوفاً في لفائف القياط ، أو محملاً في بطن النعش ملفوفاً بلفائف الكفن ...

قانونها هذا : أرحام تدفع ، وأرض تبلع !! لأنها لا تدور على فراخ ، ولا تسمح ببقاء دائم .

٢ - الربيع

أنظر بعينيك في كل مكان في السماء والأرض ، واحذر أن يشردا منك ولا يرتدا إليك ...

أدرها على كل طفل من أطفال الطبيعة ... واحذر الخنازلات الناعسات من عيون الأزهار .

العشب والزهر كأطفال خرجوا في صباح عيد ... والصبح ممشوق القوام ، واضح الجبين ، والليل فاتن الملامح ...

إخلع نملك وسر حافياً على جسم أمك ، وتمسح فيها حتى يجددك من الحياة الجديدة .

لاعب إخوتك الصغار الذين تفتحت عنهم الأكمام ، وقذفتهم الأرحام ، ونسجتهم ظلمات الأرض ، ولوتهم أضواء السماء ، وخذ لشفتيك قبلات من المواليد الجديدة .

إفتح حواسك جميعاً ليدخل شباب الدنيا إلى نفسك ، واخترن في قلبك قوت سنة من الحياة والجمال .

إملأ عينيك بالأضواء والأصباغ ، وأذنيك بالأغريد والموسيقى السائلة الذائبة في الأجواء والأنهار .

ضاعف إحساسك بالحياة ونيقظ ، واخلى لنفسك أعصاباً